

كان «شاهبور» لا يزال يتساءل عن التقدير الذي يجب إيلاؤه لهذه التقارير الحافلة بالويل والثبور حين بلغه سقوط (أنطاكية) فجأة وذبح حاميتها الساسانية. واستدعى على عجل مجلس كبراء المملكة مشدداً منده المرة على أن يُعثر على ابن (بابل).

علم النبيل الشاب الذي قصد، في تحمّل رسمي، منزل «مالكوس» من الجسر أن «ماني» كان قد ذهب في هذا الصباح إلى القرية التي وُلد فيها. وكان أبو «باتيخ» قد توفّي أثناء الليل بعد أن أوصى بدفنه في (ماردين) في حديقة منزله المهجور إلى جانب من كانت لوقت قصير جداً زوجته المدللة، ثم ضحية لنزواته التفوية. وعليه فقد ذهب «ماني» لرؤية قرية طفولته الأولى في حجّ حميم رغب عدد كبير من المؤمنين في الانضمام إليه.

إنها لمصادفة عجيبة حقاً بالنسبة إلى رسول، إلى نبي، إلى مؤسس عقيدة، أن يحتفظ بأبيه هذه المدة الطويلة. فالوالد في حياة «موسى» أو «بوذا» أو «يسوع» أو «زرادشت» إما غائب وإما طيف وإما أنه لم يلبث أن توارى، وكأنما كانت أصداغ اليتامى أجدر بتلقي مسحة المباركة من «السماء». ولكن لم تكن حال «ماني» كذلك. فقد كان أبوه قريباً على الدوام. مُتَّبِعاً خطاه حتى في سنّ الرشد؛ وإذ كان مغامراً في سبيل الإيمان المتصلّب، ثم تلميذاً وحوارياً، فإن رحلته تُوطد وتشرح وتؤكد رحلة ابنه ومعلمه.

لما كان «ماني» واقفاً بالقرب من قبر «مريم» و«باتيخ»، غير ناسٍ أن يُلقي نظرة أحياناً على بُعد بضعة أخاديد من هنا باتجاه قبر المخلصة «أوتاكيم»، فقد بدا مسلوباً رصانته الطبيعية، ولم يكن يملك شيئاً من صفات القائد أو المرشد. وكان فكره الشبيه بقارب دقيق غارقاً في المدّ المتلاطم للمشاعر والذكريات، وقد جمع بمشقة بضع كلمات ليطلب فيها إلى أقرب «مختار» منه، وهو تلميذ من (الرّها) اسمه «سيسينيوس»، أن يؤمّ الصلاة بدلاً منه ويُلقى العظة. وكان تأبيناً قصيراً ومعتدلاً، بيد أن ابن (بابل) لم يستطع متابعتها حتى النهاية، وأحسّ